

من أدركه فضل الله ورحمته كان من أهل الكتاب المجيد والملازمين لتلاوته

القرآن .. ضمانة للعيش السعيد والموت الحميد

إذا أردت أن تعيش سعيداً فعش مع القرآن، قال تعالى (مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ بَرْدٌ) وبرحمته فيذلك فليقرءوا هو خير مما يجمعون (يونس: 58)، قال بعض السلف: «فضل الله الإسلام ورحمته القرآن»، وقال بعضهم: «فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أمته».

فمن أدركه فضل الله ورحمته كان من أهل القرآن، ومن كان من أهل القرآن رزقه الله فرحاً يجده في قلبه، فرحاً حقيقياً ناجماً عن سكن القلب وإطمئنانه (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنن القلوب) (الرعد: 28)، وإذا أردت أن تموت حميداً فعش مع القرآن، وإليك أخي الكريم هذه الطائفة من القصص نحكي لك فيها اللحظات الأخيرة من حياة بعض حاملي القرآن عبر تاريخ المسلمين.

فهذا عبد الله بن عباس ترجمان القرآن الذي دعي له النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) فوهب حياته لتعلم القرآن وتفسيره، ومن أحكام وأسرار. يعتمد على تفسيره كل من أتى بعده، قل على هذا الحال حتى مات قلماً ذهباً به ليدفوه داخل نعشه طائر لم ير مثل خلقته من قبل ولم ير خارجاً منه (يا أيها النفس المطمئنة) (الفجر: 27) وسمعوا بعد دقته صوتاً على شفير القبر لا يدري من القائل (يا أيها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي واخلي جنتي). (صححه الهندي في مجمع الزوائد 285/9، وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء 358/3 هذه قصة متواترة).

وأخر وهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني صاحب القراء المشهورة من القراءات العشر رجل عاش حياته للقرآن وعى القرآن في صدره فلما مات غسلوه فنفثوا ما بين نحره وفؤاده - منطقة الصدر - كورة المصحف فيقول نافع مولى ابن عمر وهو ممن غسله: فما شك من حضره الله نور القرآن. سير أعلام النبلاء للذهبي 287/5.

أما شيخ الإسلام ونخبة الأئمة أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الذي عاش حياته في سبيل الله، يجاهد بالكلمة واللسان، سجنه أعداؤه في آخر حياته فانكب على تفسير القرآن، نزعوا الأوراق من بين يديه فكان يكتب على الجدران، حتى منهوه من الأقالم فانكب على تلاوة القرآن يتخذه الخشعة تلو الخشعة حتى كان آخر شيء قرأه قبل أن يموت (إن اللعين في جنات وهو في مقعد صدق عند مليك مقتدر). قد يقول قائل: هذه قصص السابقين وحكايات الغابرين، أما الآن فلا يوجد مثل ذلك. نقول له: لا بل لا يزال الله يظهر حسن خاتمة من تمسك



بكتابه ليدل على صدق هذا الكتاب الذي من تمسك به نجا. فهذا شيخ القراء بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة الشيخ عامر السيد عثمان، ابتلاه الله قبل وفاته بسبع سنين بقطع أحياله الصوتية فأصبح قارئ القرآن بلا صوت، هل يسكت أو ينوأي ويعجز؟ لا بل ظل يدرس لتلاوته عن طريق حركة الشفاة والإيماءات والشهيق حتى جاءه مرض الموت فأصبح قصيد الأسرة البيضاء في المستشفى، وقبل وفاته بثلاثة أيام سمعه أهل المستشفى يقر القرآن بصوت جهوري عذب ندي لمدة ثلاثة أيام حتى ختم فيه القرآن من الفاتحة إلى الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها فرحمه الله رحمة واسعة، (الجزء من جسد العمل للعطائي 434/2) نقلاً عن المجلة العربية (عدد 171 ص70)، فأنظر لنفسك أخي في الله أي خاتمة تحب أن تختم حياتك بها، فإذا أردت حسن الخاتمة فالحق بهذا الركب واحفظ القرآن وتدر به وأعمل به كي تكون من الناجين نسأل الله حسن الخاتمة.

فضل سورة الفاتحة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أتيتكما، لم يؤتكما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة «البقرة». (ابن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته) رواه مسلم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنزلت في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاً، وإنها سبع من المثاني، والقرآن العظيم الذي أعطيته.. متفق عليه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبيدي ما سأل، فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين». قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: «الرحمن الرحيم». قال: الذي علي عبدي، فإذا قال: «مالك يوم الدين». قال مجدني عبدي، وإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين». قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبيدي ما سأل. فإذا قال: «اهدنا الصراط المستقيم». صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين». قال: هذا لعبيدي، ولعبيدي ما سأل.. رواه مسلم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

عن أبي سعيد الخدري قال: عن أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا فنزلت فجاءت جارية فقالت إن سيد الحي سليم وإن نقرنا غيب فقل منكم راق فقام معها رجل ما كنا نأبىه برقية فرقاه فبنا فامر له بلالين شاة وسقانا لبنا فلما رجع قلنا له أكتت تحسن رقية أو كتت ترقي قال لا ما رقيت إلا بام الكتاب فلنا لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسال النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال وما كان يدريه أنها رقية اسموا واضربوا لي بسهم). (رواه البخاري).

استهانة العبد بالمحرمات .. دليل على ضعف الإيمان

■ حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التهاون بالمحرمات وإن ظن العبد أنها ليست من كبائر الذنوب

ويتبع تلك الشهوات يُبطل بالاستهانة بالمحرمات وإذا وصل إلى هذه الحال فربما سقط من عين الله تعالى، كما قال بعضهم في أمثال هؤلاء: هانوا على الله فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم.

وقال الله تعالى: «وَمَنْ يُؤَيِّنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ حُكْمٍ». فلا تكلم من تيسرت له أسباب المعاصي أن ذلك بذاته ولفظاته أو جماله وحفته، إنما ذلك والله لفظاته على الله وسقوطه من عين ربه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد أن يعلم ما له عند الله، فليتلز ما له عنده، رواه الدارقطني، وأبو نعيم في الحلية، وزاد الحاكم: » فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه.

فليستحضر العبد عظمة ربه واطلاعه عليه ومراقبته إياه: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ»، «لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ». ثم ليؤمن أنه سيفقد بين يدي ربه يوم القيامة: يا رب، ألم تجزني عن الظلم؟ أقول: بلى، فيقول: (إني لا أجزي عن نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً»، وبالكرام الكاذبين شهوداً فحُتِمَ على فيه، ويقال لأركانه: انطلق، فتطلق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: يُعَدُّ لَكِنْ وَصَحّاً، فنعثُك كَتَبَ أَنَاضِلْ».

فحري بنا أن نحاسب أنفسنا اليوم قبل أن نحاسب غداً. العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عثرات القتي يعبود هل يستطيع جلود ذئب واحد رجل جوارحه عليه شهود نسأل الله أن ينوب علينا، وأن يجعلنا ممن يعظمون حرماته ويقفون عند حدوده، وصلى الله وسلم وبرك على نبيه محمد وآله وصحبه والتابعين.



■ كتب ربنا على نفسه الرحمة فضلاً منه على عباده فأباح

لهم الطيب النافع وحرّم عليهم الخبيث الضار

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المويقات». لقد عظموا حرمات الله حين فوي الإيمان في نفوسهم، واستشعروا في جميع أحوالهم عظمة الله ومراقبته، يقول بلال بن سعد: «لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى من عصيت». وإذا تصادى العبد في ارتكاب الذنوب مستهيناً بها غير مبال بنظر الله تعالى إليه فربما عوف بعقوبة أخرى أشد وهي تزوين الفكر بحيث يظن عند ارتكابه أنه يحسن الصنع: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكَ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا». إن العبد قد لا يصل إلى هذا الحال الذي لا يحبه الله بذعة واحدة، بل يبدأ مسلسل الانحراف والانحدار خطوة خطوة، ولهذا حذرنا الله تعالى من اتباع خطوات الشيطان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْعِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ». إن الشيطان قاعد للإنسان بالمرصاد يوسوس له ويغلي عليه الشهوات والأباطيل ليضلّه عن سبيل الله أو على الأهل يجعل سريره في هذه الطريق محفوفاً بالتضييع والتفريط.

وحين يستجيب المسلم لهذه الوسواس

ليست كبائر الذنوب فقال صلى الله عليه وسلم: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وضرب لهم مثلاً فقال: «كمثل قوم نزلوا أرض فلا تحضر صنع قوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً فأججوا نارا، وانضجوا ما نضجوا فيها». ومحقرات الذنوب هي ما لا يبالي المرء به من الذنوب، وما يعدونه صفاتاً، لأن إيمان الصغار يودي إلى ارتكاب كبائر، إن العبد إذا كان قوي الإيمان تخرج من كل معصية صفرت أو كبرت لأنه ينظر إلى عظمة من عصاه، أما إذا ضعف الإيمان عند العبد فإنه يتجرا على المعاصي ويستهين بها، كما بين النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يزيي الزاني حين يزيي وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». فاستهانة العبد بالمحرمات وشعوره أنه لم يفعل شيئاً هو جدد ذاته دليل على ضعف الإيمان، وهو أيضاً سبب لتعظيم الذنب بحق مرتكبه كما أكد على ذلك العلامة ابن القيم رحمه الله: «وإذا فعلت المعنى ما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدّها

■ حرم الله على عباده أشياء معينة صيانة لأنفسهم وحماية لدينهم وعقولهم وأعراضهم

قال الله تعالى مبيناً سمة شريعة الإسلام: «الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الرُّسُلَ الَّذِينَ الْأَسَى الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي السُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ». وما جعل الله هذه المحرمات للتضييق على العباد، فشرع الله يسر كلّه ورحمة كلّه «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثْغَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ آيَاتُ الْوَعْدِ أَجَلَ عَمَلِكُمْ وَتَكُونَ أَنْفُسُكُمْ سَاهِيَةً» «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا».

إنما حرم الله على عباده أشياء معينة صيانة للعباد أنفسهم وحماية لدينهم وعقولهم وأعراضهم وأنسابهم. وانظر إلى المحرمات وتدرج وإسناد نفسك عن الفوائد التي تجنيها المجتمعات من خلال هذا التحريم.

خذ مثلاً تحريم القتل والاعتداء على النفس، إذا ألزم الناس به شاع في الناس الأمن على النفس والأبدان وإذا ألزم الناس تحريم السرقة أمنوا على أموالهم وممتلكاتهم، وإذا ألزم المجتمع بتحريم الزنا ووسائله أمنوا على أعراضهم وأنسابهم.

وإذا ألزموا بتحريم المسكرات والمخدرات حفظت عقولهم، وإذا ألزموا تحريم قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وأتية الجيران شاعت المودة والألفة والرحمة.

فأي سمو في التشريع هذا الذي عليه تشريع الإسلام! لكن إذا نظرنا إلى الواقع لوجدنا فئات من الناس قد استهان بالمحرمات فتجرات عليها غير مبالين بنظر الله تعالى إليهم، وقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن المنافق يرى ذنوبه كذباب وقع على نفسه فقال به هكذا».

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من التهاون بالمحرمات وإن ظن العبد أنها

الصالحات القانتات .. وصورة من السيرة

عليها، كان يتفق ولا يخاف فقرا، يعطي عطاء البقي وهو أجود بالخير من الريح المرسلة وكان يقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن ليسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتناسوها كما تناسوها، فليحكم كما أمركم».

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بنفسه وأل بيته أن يتأفوا أحداً في دينه ولو بشرف نفس لأن ربه سبحانه علمه وأديه ونهاه بقوله سبحانه: «ولا تمنن عرضك إلى ما منعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيها ورر ربك خير وأبقي». فالحناء الدنيا وما فيها من مناع وما يحوطها من زخارف ووشى زهرة والزهرة ستبطل بعد حين بعد الأيلاء بها والحناء برواقها ورواقها، أما رزق الله سبحانه له فهو نعمة بلا فتنه.

قال في الظلال: دعوة إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرسى به، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة التراء، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا، وتبقى دأماً تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار...ولكن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن نساء من البشر، لهن مشاعر البشر، وللهن حاجات وزينة من مال ومناع ونفقة اجتهن بسألته صلى الله عليه وسلم النفقة فأصابه من الأسى ما أصابه حتى احتجب صلى الله عليه وسلم عن أصحابه.

وأقبل أبو بكر -رضي الله عنه- يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاس بهاد جلوس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر-رضي الله عنه- فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما فدخلا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساءه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت فقال عمر: لأكلمن النبي صلى الله عليه وسلم لعله يضحك. فقال يا رسول الله لو رأيت أمة زيد - امرأة عمر - سألني النفقة فوجأت عنيها!

فصمت صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال: «من حولي يسألني النفقة! فقام أبو بكر -رضي الله عنه- إلى عائشة، وقام عمر -رضي الله عنه- إلى حفصة، كلاهما يقولان: «نسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟» فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالن: والله ما نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده، ونزلت آية التحريم. بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبيته عائشة -رضي الله عنها- فأخبرت الله ورسوله والدار الآخرة وقالت: أسألك ألا تفكر لأمارة من نسائك ما أخبرت، فأجابها صلى الله عليه وسلم: لا نسألني امرأة منهن عما أخبرت إلا أخبرتني.

انطلقت من هوائف الأرض ونحرها، كلهن رضي الله عنهن أخترن الله ورسوله والدار الآخرة. ملأهن من عواطف الحب وومضات الإيثار في البقي بما عند الله للصالحات القانتات، «ومن بقتن منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين، وأعطينا لها رزقاً كريماً».

في رُحمة الحياة واشتداد صحتها وتوالي حوادنها وكز إيماءها ينسى الإنسان كثيراً وتتابع حلقات الإنسان لتخل العنق بأغلال الأرض ويلتصق بها مؤثراً إيماء بل ربما يجعلها الآخرة والأولى والليداً والمتنهي، من هنا جاءت أهمية الذكرى لتنتشع غمامات الخلفة عن عين البصيرة وسردك الحقيقة، والسلف روضان الله عليهم وهم القدوة حالات لنبي ياتر اليقظة، ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقفل اليوم يفلو ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه»، والدقل هو ردي التمر.

ورم أبو هريرة رضي الله عنه يقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خير الشعير. وتكرر هذه الحالات في صور شتى ومواقف مختلفة ولندكرى بريقها وبريقها، بها نامل وتامل، ثم البس من حق الروح أن نتحق في سماء الوفاء؟

إذا أردت ذلك فمأ عليك إلا أن تصاحبنا في لحظات من يقظة القلب وبصيرة العقل وحياة الروح مع هذا الحديث قالت عائشة رضي الله تعجلني حتى نساكرمي أبوك، قالت: وقد علم أن أبواي ما يكونا يامراني برفقة، قالت: ثم قال: إن الله جل ثناؤه قال: «يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها، إلى قوله، اجرا عليها»، قالت -قلت: ففي أي هذا لساكرمي أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً فعلت»، أخرجه البخاري ومسلم.

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزاً عن حياة الكفاف وإنما استعلاء بنفسه نوقن أن الآخرة خير لها من الأولى وأنها الأولى، جاءه جبريل عليه السلام بمفاتيح خزائن الأرض فقف عنها وتركها واتر الآخرة

